

ظاهرة مبرقة في الأزهر

أمثلة . . .

للأستاذ محمد محمد المدني

ذكرت في مقال السابق أن « ظاهرة جديدة » قد ظهرت في الأزهر . تلك الظاهرة هي أن أحداث الإصلاح التي كانت حول الأزهر والأزهريين قد أصبحت الآن في الأزهر وبين الأزهريين ، وانتقلت من ميدان الرسالة إلى ميادين أخرى في مدرجات الكليات ومجالس الأساتذة ومكاتب الرؤساء ، وأنها لم تمد آمالاً يقتصر على ترديدها ، بل أهداها ليرى إليها ، ويقاس القرب والبعد من النجاح بمقياسها .

وقد استبشرت خيراً بهذه الظاهرة لأنها تدل على أن الأزهر قد تنبه واستفاق وأخذ يتساءل عن مصيره ، ولأنها تيسر التعاون الثمر بين الدعاة والمؤمنين على تحقيق نهضته المرجوة ، وأخيراً لأنها صوت الشعب ، ولصوت الشعب في الأذان دوى لا يستطيع أن يتجاهله المتجاهلون

وهل يعرف أحد كيف كفر المصريون في طفولة التاريخ ؟ لقد فكروا في محاربة السماء ، ليبددوا الوهم القائل بوجود السماء ، وأين السماء التي يقيم بها الله ، كما كان يقال ؟ مصر من صنع الله ، والله لا يصنع غير الحقائق الأزلية ، وسيشقى من يشقى في محاربة مصر ، ثم تبقى إلى الأبد وهي غمرة في جبين الوجود

ما أسعد من يرى مصر أول مرة وهو سليم القلب والوجدان ! إن رؤية مصر في كل صباح وفي كل مساء وعلى طول السنين لم ترهدنا في مراهها الجميل ، فكيف تكون الانفعالات النفسية في صدر من يراها لأول عهده بقلها الخفاق ؟ وأنا مع هذا أعاني في رحابك يا وطني ما أعاني ، فمتى يخف شقائي بك وعتابي عليك ؟

أنا أطلب المستحيل إن طلبت في رحابك الأمان كل الأمان ، لأنه حظ الأموات ، ونحن أحياء

لك يا وطني أن تبعد ما تبعد من تهويل الحقائق والأباطيل ، وعلينا أن نجاري روحك المبدع فنكون من أقطاب الشعر والبيان .

نذك مبارك

استبشرت خيراً بهذه الظاهرة ، وأحبت أن أسجلها على صفحات الرسالة كما هو دأبي ، لأنني أعتبر « الرسالة » ويعتبرها المخلصون جميعاً مجلة الإصلاح الديني والأزهري ولسان الدعوة إلى إنهاض هذا الشرق وإحياء ترثه المجيد ترث الدولة الإسلامية إبان عظمتها وفي عنفوان شبابها ، ولأنني أحسب أن تاريخ هذا الجهاد الشريف سيلتسم يوماً ما من مجلداتها فلا ينبغي أن يفيب عنها شيء منه دق أو جل لتكون الصورة كاملة واضحة لا تقص فيها ولا غموضاً

واليوم أذكر « أمثلة » لتلك الظاهرة التي وصفت . أمثلة يرفها كثير من الناس في الأزهر وفي غير الأزهر . ولست أقول : ماذا أذكر منها وماذا أدرج ، لأنها لم تعد سراً تنطوى عليه الجوانح ، وتتلق دونه الأبواب ؛ ولكن أقول : ماذا أقدم منها وماذا أؤخر ؛ لأنها جميعاً أمثلة جديدة بأن تتقدم وبأن يلتفت الناس إليها ، ويتفهموا مغزاها ، ويدركوا عواقبها . وربما كان من الرأي أن ندع الآن جهود الطلاب ونشاطهم الذي لا يكمل في النشأة بتنفيذ خطة الإصلاح ، وما يقدمونه ويدعون إليه في مدرجاتهم من اجتماعات أسبوعية يخطبون فيها ويتناظرون ، وما يكتبونه من رسائل مفعمة بحماسة الشباب وحرارة الإخلاص يتوجهون بها إلى أساتذتهم ورؤسائهم ، وما يبعثون من وفود إلى ولاية الأمور في الحين بعد الحين ، لا هاتفة بالمال ، ولا ملتزمة الرزق ، ولكن هاتفة بالإصلاح رغبة في العلم النافع الذي يصل الأزهر بالحياة . ربما كان من الأوفق أن نترك هذا ونحوه الآن ، وأن نلتزم ما نريد من الأمثلة في محيط غير هذا المحيط ليعلم الناس أي مدى بلغت دعوة الإصلاح . وإنما لفاعلون :

(١) قالوا : إن طائفة من أبناء الأزهر المخلصين ، فيهم شيخ كبير يشغل منصباً هاماً من مناصب الدولة ، وله صلة وثيقة بالأزهر ، وفيهم وكيل لإحدى الكليات الأزهرية معروف بإخلاصه وغيره وصداقته لفضيلة الأستاذ الأكبر ، وفيهم شاب مثقف بالثقافة الإنجليزية إلى جانب ثقافته الأزهرية — ضم هذه الطائفة مجلس مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، وكان مجلساً صافياً مباركا : فكروا فيه في الأزهر ، وذكروا ما آلت إليه أحوال الدراسة وشئون العلم في معاهده وكلياته وتخصصاته ، واستمادوا ذكريات ماضية ما زال الناس يذكرونها لفضيلة الأستاذ

ورافقه صاحبه على هذا الرأي . فأما فضيلة الأستاذ الأكبر فلم يفته ، وهو الرجل الذكي الألمي ، ما تقصد إليه هذه الإشارة فقال : لقد مضى على الأزهر ألف عام كان فيها بين التقدم والتأخر ، وتقلب عليه فيها نظم كثيرة ، فإذا كانت الأعوام العشرة الأخيرة ليست من أعوام النجاح في تاريخه الطويل فهي أعوام تجرية ، فأسقطوها من حساب هذا التاريخ ، واعتبروها كذلك ، وانظروا في تعديل هذا النظام على وجه تسليح به شئون الأزهر . قال قائلهم : لا . ليس السرفيا يشكو منه الناس راجعاً إلى النظام ، فإن النظام في ذاته صالح وليس فيه عيب جوهرى ، ولكن هذا النظام لم ينل حظه من التنفيذ كما ينبغي أن ينال . وهذا هو السرف في أنه لم يثمر ثمراته التي كان الناس يرجونها منه . قال فضيلة الأستاذ الأكبر : نعم هذا صحيح ! ولا شك أن هذين المثاليين يدلان على ما عنيت بوصفه من

تلك الظاهرة الجديدة التي بدت في الأزهر ، وفي استطاعتى أن أمثل بكثير من نوعهما ، مما يدور في المجالس الخاصة ، ويتناقل الناس الأحاديث عنه ، ولكنى أورد مثلاً ثالثاً هو أجلى في بيان تلك الظاهرة وأدنى أن يعد من آثارها :

(٣) ذلك أن رجلاً مسئولاً من رجال الأزهر هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء دعا في يوم من أيام شهر فبراير الماضى إلى محاضرة يلقيها في دار كلية الشريعة موضوعها « السياسة التوجيهية العلمية في الأزهر » ولست أريد الآن أن أخلص للرسالة هذه المحاضرة ، ولا أن أتقل شيئاً منها ، ولكنى أريد أن أصف للقراء كيف أقبل الناس على سماع هذه المحاضرة وكيف استقبلوها عند ما سمعوا ، ليعلموا أن عيون الأزهريين قد أصبحت متطلعة ، وأن آذانهم قد أصبحت مصنية ، وأن نفوسهم قد أصبحت مستعدة .

فأما إقبال الناس على هذه المحاضرة فقد كان رائماً : إنه لم يكده عنوانها ينشر على الناس مقترباً باسم صاحبها حتى جعلوا يتساءلون : ما ذا عساه يقول في هذا الموضوع . وكيف يذكر حقائقه ، ويمرض للناس وقائمه ؟ تساءلوا عن ذلك لأن العنوان وما عرف به صاحب المحاضرة من حب للصراحة وجهر بالحق قد أثار في نفوسهم معانى شتى هم بها يشمرون . وللبوا دعوة الداعى خفياً سراعاً حتى بلغت عدتهم قريباً من أربعة آلاف بين علماء وطلاب ، واكتظت بهم مدرجات الكلية وحجراتها

الأكبر ، وقيل لفضيلته في هذا المجلس : إن الناس ينتظرون منه أن يعيد عهد المراعى الذى كان على رأس الأزهر في سنة ١٩٢٨ . ينتظرون منه أن يعيد عهد المراعى القوى الجرى ، الذى كان يكتسح العقاب ، ولا يعبأ بالصعاب ، ويفار على فكرته الإصلاحية ويدافع عنها دفاع الأسد المصور . وقيل له في هذا المجلس أيضاً : إن الناس لا يريدون منه أكثر من أن ينفذ مذكرته الإصلاحية الكبرى بالروح التي وضعها بها ، بالقوة التي تمثلت فيها ، بالصراحة التي تتجلى في كل سطر من سطورها ! وأذن فضيلة الأستاذ الأكبر لهذه الكلمات المخلصة التي تفيض عن قلوب للأزهر والدين مخلصة . أذن لهذه الكلمات ، وفتح لها قلبه ، واستعاد ذكرى ماضيه المجيد الذى تشير إليه ، ثم قطع على نفسه عهداً ليكون كما يريدون فلا يأتى أول العام الدراسى « يريد فضيلته العام الماضى » حتى تبدو آثار ذلك لهم وللناس أجمعين !

وانطلقت البشرى بهذا الحديث في مجالس الأزهريين وغير الأزهريين ، وقرت به عيون واطمأنت إليه قلوب ، وترقب الناس أول العام الدراسى متلهفين .

ولست أريد أن أعجل فأسال : ماذا كان في أول العام الدراسى ؟ وإنما أوتر الآن أن أستمر في عرض المثل لهذه الظاهرة حتى لا أخرج عما رسمت لنفسى في هذا المقال :

(٢) وقالوا أيضاً : إن طائفة من العلماء قد اجتمعت على سبيل المصادفة في مكتب فضيلة الأستاذ الأكبر ، وكانت هذه الطائفة تضم بعض ذوى المناصب في الأزهر ، وكان اجتماعها قبل ظهور فكرة الاحتفال بالعيد الألقى بزمن يسير ، وجرى الحديث في شئون مختلفة ونواح شتى ، ثم جرى حول الأزهر وحالة الدراسة في كلياته ومماهده فأشار فضيلة الأستاذ الأكبر بأن يتناظر اثنان عيّنهما في هذا الموضوع : « هل الأزهر القديم خير أو الأزهر الحديث ؟ » فقال أحدهما : ينبغي أولاً أن نحزر على طريقة الأزهريين موضع النقاش في هذه المناظرة ، فنعرف من أين يبدأ الأزهر الحديث ؟ أبدأ بمهد الإمام الأول المفطور له الشيخ محمد عبده ، أم يبدأ بمهد الإمام الثانى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراعى ؟ فإن كانت الأولى فالأزهر الحديث خير من الأزهر القديم ، وإن كانت الأخرى فإلى أن يخرج الأزهر الحديث أمثال المراعى وعبد المجيد سليم ومن إليهما يظل الأزهر القديم خيراً من الأزهر الحديث !